المحاضرة الثانية: نزعة التمرد في شعر الصعاليك

تمهيد:

عرف العصر الجاهلي قسما كبيرا من الشعراء الذين ظهرت لديهم ما يسمى "بالنزعة القبلية" أو العصبية القبلية، التي فرضتها القبيلة على كل من ينتسب إليها، وماد دام الشعراء ينتمون إلى قبائلهم، فقلد التزموا –بموجب هذا العقد الاجتماعي– بالدفاع عن قبائلهم بأشعارهم. فنشأ عن ذلك ما يسمى بالشعر القبلي، بما تضمنه من أغراض، إلى جانب هؤلاء ظهرت فئة من الشعراء في العصر الجاهلي لا تؤمن بهذا التوجه القبلي.

الشعر والاتجاه الفردي:

من الطبيعي جدّا أن يتباين الشعراء في مذاهبهم الفنية، وتوجهات الفكرية؛ فمنهم من تذوب شخصيته الاجتماعية والفنية في قبيلته، ومنهم من يشد عن ذلك. يقول الدكتور يوسف خليف: "عرف المجتمع الأدبي الجاهلي طائفة من الشعراء لم تفن شخصياتهم الفنية في شخصيات قبائلهم، ولم يصدوا في فنهم عن الشخصية القبلية، وإنما كانوا يصدرون عن شخصياتهم الفردية"[1].

ومعنى هذا أنهم لم ينظموا فنهم الشعري من أجل قبائلهم، بل من أجل انفسهم، وآمنوا بأن الشعر لا يمكن أن يحاط بقيود القبيلة، مثل امرؤ القيس، وطرفة بن العبد.

ومن الشعراء الجاهليين طائفة من أصحاب الاتجاه الفردي في الشعر لكنها تختلف عن مذهب امرؤ القيس وطرفة، في كونها لا تؤمن بالقبيلة، ولا بالنظام الذي يحكمها.

وقد تكلم النقاد والدارسون عن هذه الفئة من أصحاب الفردية المغرقة في تقدير الذات، وتقديسها؛ حيث وصفهم الدكتور يوسف خليف، بقوله: "وأما الطائفة الأخرى التي بالغت في فهم الشخصية الفردية، فهي طائفة الشعراء الصعاليك، وهم أولئك المتمردون على النظام القبلي، الكافرون بالعصبية القبلية، المؤمنون بعصبية أخرى شعارها لغزو والإغارة والسلب والنهب"[2]. فقد حفل العصر الجاهلي بنماذج من الشعراء الصعاليك، الذين دبت فيهم روح الفردية، إلى درجة فقدوا فيها إحساسهم بالقبيلة، وانتماءهم إلى المجتمع الذي نشأوا فيه، وحفلت كتب تاريخ الأدب بروايات كثيرة عنهم، تحكي مغامراتهم، وتروي طائفة من أشعارهم.

---

[1]– يوسف خليف: دراسات في الشعر الجاهلي، ص180.

[2]– يوسف خليف: دراسات ف الشعر الجاهلي، ص187.

لامية العرب: (1)

ي من النصوص الشعرية التي ظهرت فيها نزعة التمرد لدى الشاعر الصعلوك الشنفرى في أوضح تجلياتها، وهي خير ما يتمثل به، في هذا المقام.

حظيت "لامية العرب" باهتمام الدارسين والنقاد العرب قديما وحديثا. ومن النقاد الغربيين، والمستشرقين، لما لها من الأهمية البالغة في التراث الشعري القديم، حيث تعد فاصلا بين اتجاهين شعريين مختلفين، هما اتجاه الشعر القبلي، واتجاه الشعر الفردي المتمرد.

ولعل ما يهمنا في هذه المحاضرة، هو نزعة التمرد وتمظهراتها في هذا الخطاب الشعري المتميز، يصفها الدكتور عبد الفتاح أحمد يوسف بقوله: "القراءة الأولى للامية العرب، تشير إلى أننا أمام خطاب يحلق خارج سرب النسق الاجتماعي، سواء من الناحية البنائية، أو من الناحية الاجتماعية؛ لأن مؤلفه يقبع خارج حدود ثقافة المجتمع القائمة على التمييز العنصري، والإقصاء، والتشويه الأخلاقي للمختلف أو المغاير من فئة الصعاليك"[1]؛ حيث تناول الدكتور أحمد يوسف هذه اللامية من زاوية النقد الثقافي، مركزا على الأنساق الثقافية، وأثرها في تحولات البنية الفكرية والتعبيرية في شعر الصعاليك، والنتيجة هي صراع الإنسان مع الإنسان.

ويرى الدكتور يوسف عليمات أن الأنساق الثقافية تعمل على تفعيل الصراع الإنساني في النص، يقول: "تتجلى موضوعة الصراع عند الشعراء الجاهليين من خلال ظهور صوت "الأنا" التي تصنع أفقها أو عالمها الذاتي إزاء عالم الآخرين، ولقد تعددت أساليب الشعراء في الإفصاح عن ظهوارت هذه الأنوية وسلطتها، ومن ثم تشكلاتها حسبما تقتضي شفرات الموضوع"[2].

لامية العرب –2–

فبروز الضمائر الدّالة على أن الشاعر تفرض حتم، إخفاءً لضمائر الجماعة، وهذا ما يؤدي إلى كشف المخبآت النصية لشعر الصعاليك، من رغبتهم في التمرد على قيم القبيلة، "فالنص الشعري عند الصعاليك مثلا، يتضمن في بنيته العميقة أنساقا مضمرة تعلي من شأن "الأنا"، وتجعل من صنيعها نسقا مهيمنا، على الرغم من ثانويته أو هامشيته، ولا شك في أن تفكيك الأنساق المتشكلة في فجوات النص وتأويلها من قبل المتلقي، تكشف عن حالة الصراع بين نسق قائم ثابت، ونسق آخر متحرك متحول"[3].

إن هذه القراءة السيميائيةللأنساق الثقافية في الشعر الجاهلي تضعنا أمام صراع بين نسقين ثقافيين متصارعين؛ نسق الجماعة الذي يمثل القبيلة، ونسق الفرد الذي يمثله "أنا" الشاعر الصعلوك المتمرد على نظام القبيلة.

---

[1]-- عبد الفتاح أحمد يوسف: لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، 2010، ص216

[2]- يوسف عليمات: جماليات التحليل الثقافي الشعر الجاهلي نموذجا، ط1، وزارة الثقافة، عمان، الأردن، 2004، ص53.

[3]- يوسف عليمات: جماليات التحليل الثقافي، ص53.

مظاهر التمرد في شعر الصعاليك

1- الاستغناء عن المقدمات التقليدية:

هو إعلان الشاعر أن يستغني عن قومه، ويخرج عليهم، حيث يوجه إليهم خطابه دون مقدمات علا خلاف ما جرت به العادة في الشعر القبلي قائلا[1]:

أقيمـــوا بـــني امّـــي صـــدور مطـــيكم فـــإنّي إلى قـــوم بســـواكم لأميـــل
فقـــد حمّـــت الحاجـــات والليـــا مقمـــر وشـــدّت لطيـــات مطايـــا وأرحـــل
وفي الأرض منـــأى للكـــريم عـــن الأذى وفيهـــا لمـــن خـــاف القلـــى متعـــزّل
لعمـــرك مـــا بـــالأرض ضـــيق علـــى ارمـــئ ســـرى راغبـــا أو راهبـــا وهـــو يعقـــل

وتخلص الشنفرى من المقدمة الطللية الغزلية، المعهودة في المعلقات، هو علامة فنية على خروجه من نظمهم الشعرية التي فرضتها القبيلة، غير أن الدكتور يوسف خليف يفسر هذا التجاوز الذي قام به الشنفرى في لاميته بمحاولته الشاعر في الحفاظ على "وحدة الموضوع"، يقول: "وهذا طبيعي ما دام لشعراء الصعاليك يحرصون على الوحدة الموضوعية في شعرهم"[2].

وفي الحقيقة يمكن اعتبار الخروج عن القبيلة خروجا، تطلب من الشاعر إسقاط المقدمة الفنية، ليحافظ على الموضوع. أما الدكتور عبد الفتاح أحمد يوسف فيرى أن: "الاستغناء كحركة اجتماعية، تشير إلى نمط فكري مغاير لما هو سائد ومألوف في التقاليد القبلية، وكفكرة فردية يجد صاحبها نفسه محاصرا من قبل ثقافة بلا مثقفين، وافكارا بلا فكر"[3].

إن وجود المقدمات الطللية والغزلية لد دلالته في القصيدة، ومن ثم يلتزم بها شعراء النظام القبلي، ويسعون إلى تجويدها، ولعل اختفاء هذه المقدمات التقليدية (الأطلال، الضغائن، الغزل، الشيب، الشباب، الطيف، الخمر)، من شعر الشنفرى له دلالته، هو الآخر.

ويميز الدكتور عبد الفتاح أحمد يوسف في هذه القضية بين ارتباط كل منهما، من الناحية الزمنية؛ "فالمقدمة التقليدية تشير في جوهرها إلى ارتباط الشاعر بالماضي، ومن ثم يصبح الماضي علامة على الحياة وسبيلا لها، واختفاء هذه المقدمة في لامية العرب يشير إلى الانفصال عن هذا الماضي؛ لأنه علامة على المأساة"[4].

حيث يقرر الشاعر اختيار الزمن الذي يبعده عن هذه المأساة التي عايشها في القبيلة، فهو يبحث عن ذاته الضائعة ليخرجها من سطوة التقاليد الاجتماعية، وليمنحها القيمة الحقيقية التي تستحقها.

---

[1]- الشنفرى: الديوان.

[2]- يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجتهلي، ص268.

[3]- عبد الفتاح أحمد يوسف: لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، ص220.

[4]- عبد الفتاح أحمد يوسف: لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، ص246-247.

ويف اختفاء المقدمات التقليدية لدى الشنفرى "تجاهل للمتلقي أو القارئ، فالمقدمة النسيبية في القصيدة العربية لها جاذبيتها الخاصة بالنسبة للمتلقي أو القارئ من البداية إلى النهاية"[1].؛ هذه المقدمات التي تكلم عنها ابن قتيبة وجعلها من أهم المفاصل التي لا غنى للشاعر عنها، وحاول أن يلزم بها الشاعر المجيد، فهي التي توصله إلى 'الرحلة' في شعره، وبدونها لن ينجح الشاعر في جلب الاهتمام من المتلقي، ولا في التأثير في حدوده.

وهنا يقدم الدكتور أحمد يوسف نظرته في اختفاء المقدمات من شعر الصعاليك، ويربطها بنزعتي العصبية القبلية، والتمرد عليها.

2- تغيير بنية الرحلة:

حظيت الرحلة في قصائد أصحاب الاتجاه الفردي المتمردون بدراسته، وتحيل من طرف النقاد والدارسين، في العصر الحديث، ومن بينهم الدكتور عمر بن عبد العزيز السيف في كتابه: "بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية الأسطورة والرمز". وقد وصف رحلة الشنفرى، بقوله: "لا تمثل الرحلة في قصيدة الشنفرى الشهيرة لامية العرب بنية من بنى القصيدة؛ بل إن القصيدة بأكملها عبارة عن بنية رحلة ممتدة ومختلفة في عناصرها وعلاقاتها عن بنى الرحلة التقليدية. لاسيما أن اللامية تمثل عند معظم الباحثين مذهبا شعريا مستقلا"[2].

هذا المذهب الشعري المستقل يرفض صاحبه أن يطوعه لإرادة القبيلة، ولا أن يفخر بها –كما يفعل أصحاب النزعة أو العصبية القبلية، ويؤكد هذا عبد العزيز السيف قائلا: "ولا شك أن "بنية الرحلة" شكل عام تنطوي على فخر بالذات القادرة على تجاوز الصعاب، وهو ما تحتاجه قصيدة الصعلوك الذي لا ينتمي لقبيلته وإنما ينتمي لنفسه"[3].

إن اعتداد الشاعر الصعلوك بنفسه، وافتخاره بها أصبح هو الأساس في حركة التمرد، والثورة على الجماعة. وبهذا يتحلل الصعلوك من كل القيود التي تلزمه بها قبيلته، ويُحل العقد الاجتماعي بينهما، ومن ثم فإنه يستبدل هذه العصبية القبلية بعصبية مذهبية قوامها الجماعة الجديدة التي ينتمي إليها.

تتكون الرحلة في شعر الصعاليك بداية من البيت الأول في اللامية، وإلى آخر بيت منها، ويمكن توضيح بعض ملامح الرحلة ي شعر الشنفرى على النحو الآتي:

1- إعلان الخروج: يرحل الشاعر في قصيدته دون أن يقف على الأطلال، مُسْقِطًا –بذلك- هذا التقليد الفني الذي نجده في شعر المعلقات، يقول الشنفرى[4]:

---

[1]- المرجع نفسه، ص248.

[2]- عمر بن عبد العزيز السيف: بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية، الأسطورة والرمز، ط1، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، 2009، ص203.

[3]- المرجع نفسه، ص 203.

[4]- عمر بن عبد العزيز السيف: بنية الرحلة في القصيدة الجهلية، ص207.

أقيمـــوا بـــني امّـــي صـــدور مطـــيكم فـــإنّي إلى قـــوم بســـواكم لأميـــل
فقـــد حمّـــت الحاجـــات والليـــل مقمـــر وشـــدّت لطيـــات مطايـــا وأرحـــل

يخبر الشنفرى قومه أنهم انحرفوا عن القيم الخلقية القويمة التي كانوا قد ورثوها عن أجدادهم، وإلا يفعلوا فسوف يخرج عليهم، ويرحل إلى قوم آخرين، لايخذلوه، ولا يخونوا قيمهم الأخلاقية، ويرى يوسف اليوسف أن الخروج في شعر الشنفرى هو "إقامة نحنية جديدة نظرا لإخفاقه في مضمار التكيف مع عشيرته"[1].

حيث يتعمد إسقاط الوقوف على أطلال القبيلة، "فلم يعد ملزما بالتقاليد التي يرمز لها المكان الذي رحل عنه هو كما رحلت القبيلة"[2].

وهو لا يرى أي ارتباط بينه وبين المكان (الطلل)، فإذا كان الشاعر المرتبط بقبيلته في الاتجاه القبلي لا يرى ذاته إلا من خلال استرجاع ذكريات المكان، فإن الأمر بالنسبة للصعلوك مخالف لهذا.

فقصيدته تمثل بناءا فنيا واحدا ليس فيه طلل ولا وقوف، ولا استرجاع للذكريات، إناه بنية "تمثل مرحلة الانفصال إلى منطقة مجهولة مليئة بالأخطار لاسيما أنه فرد يعادي مجتمعا، وهو كذلك يصبح مصدر خطر على هذا المجتمع بعد هذا الخروج"[3]. ولعل العداء القائم بين الشاعر ومجتمعه أدى إلى تخلخل علاقة الصعلوك بالكان فيرغب في الانتقال عنه، "لأن علاقة الشاعر بالمكان تغدو مهزوزة ومخلخلة وأن هذا الاهتزاز في العلاقة مع المكان يقود الشاعر إلى الانفصال عنه، وتصبح ذات الشاعر بأنها أصبحت خارج المكان، والخروج عنه يحدث صدمة وهزة"[4].

وهذا الخروج ملحمي يتطلب الثأر من المجتمع الذي سلب من الشاعر الصعلوك كل ما تطلبه نفسه، ولكي يثأر منه يتحتم عليه الخروج.

بعد إعلان الشاعر الخروج عن قبيلته، ينتقل إلى مرحلة ثانية، هي مرحلة البحث عن مجتمع آخر، يقول[5]:

- وفي الأرض منـــــآي للكـــــريم عـــــن الأذى وفيهـــا لمـــن خـــاف القلـــي متعـــزّل
- ولي دونكـــــم أهلـــــون ســـــيد عملّـــــس وأرقـــــط زهلـــــول وعرفـــــاء جيـــــأل
- هـــم الأهـــل لا مســـتودع السّـــر ذائـــع لـــديهم ولا الجـــاني بمـــا جـــر يخـــذل
- وكـــــل أبي باســـــل غـــــير أنـــــني إذا عرضـــــت أولى الطرائـــــد أبســـــل

يشتمل البيت الأول على دال شعري يمكن أن يقودنا إلى مجموعة من الدلالات المكثفة التي تؤسس لهذا الإعلان بالخروج، هي في قوله: (وفيها لمن خاف القلى متعزّل)؛ حيث "تشير إلى تمزق الشاعر بين الانعزال والبحث عن انتماء جديد، والانعزال

---

[1]- المرجع نفسه، ص270.

[2]- المرجع نفسه، ص 270.

[3]- عبد العزيز السيف: بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية، ص270.

[4]- موسى سامح ربابعة: الشعر الجاهلي مقاربات نصية، ط1، دار الكندي، عمان، الأردن، 2000، ص22.

[5]-

يعني أن هذا العابر ينتمي إلى ذاته، وهو أمر صعب ومن ثم عاش العابر قلق البحث عن طقس تجمعي لينضوي في مجتمع جديد بعد أن نفته القبيلة وابتعد عنها"[1]، إذ يعيش الشاعر ضمن هذا الفضاء الجديد، منعزلا عن المجموع الذي رفضه وطرده، وتخلى عنه، وهنا تبدأ غربة الشاعر الصعلوك، فهو يخرج وينتقل إلى مجتمع آخر، فيه النمو: أرقط زهلول، والسيد: الأسد، والعرفاء الجيال، الضبع.

إن هذه الحيوانات –على الرغم من الصراع القائم بينها– تشكل مجتمعا يعوض الشاعر عما فقده بين بني جنسه، "فلقد اختار الشنفرى الانتماء إلى هذا المجتمع لأنه وجد فيه عوضا عما افتقده في مجتمعه الإنساني، أو لأنه وجد فيه القيم التي ضاعت في مجتمعه الأول"[2]. هذا المجتمع الذي يخشى هذه الحيوانات لأنها : "تمثل خطرا دائما على الإنسان وماشيته، والشنفرى جزء من هذا الخطر لاسيما أو الروايات وصفته بالسواد"[3]، ومن المعلوم أن العرب قديما يكرهون السواد لارتباطه بكل ما يخيف من الحيوانات المفترسة.

3– اختفاء أغراض تقليدية:

من أهم الخصائص الفنية التي يتميز بها شعر الصعاليك عن شعر الاتجاه القبلي، في المعلقات، هو تمرد الشاعر على الموضوعات والأغراض الشعرية التقليدية من مدح، وهجاء، ورثاء، ذلك لأنها مرتبطة بالقبيلة، يؤكد الدكتور أحمد يوسف هذه الميزة، بقوله: "اختفاء معظم موضوعات الشعر الجاهلي، لاسيما الموضوعات التي تحفل بالجماعة والقبيلة مثل المديح، والفخر القبلي، اختفى المديح وحل محله نقد السلوك الإنساني بصفة عامة"[4]؛ فقد ألغى الشعراء الصعاليك هذه المقتبسات الفنية، وحرصوا على موضوع واحد، يعبرون فيه عن ذاتيهم المتمردة على القبيلة وحرصوا على الاستغناء عن المديح والفخر والهجاء، لأنها لا تلبي حاجياتهم الفنية، ولا النفسية.

وقد تكلم الدكتور يوسف خليف على هذا "التمرد الفني"، عند حديثه عن المظاهر الفنية لشعر الصعاليك، يقول في ذلك: "فالناظر في شعر الصعاليك تلفت نظره تلك الوحدة الموضوعية في مقطوعاته وأكثر قصائده"[5].

فبدلا من أن يمدح الشاعر الصعلوك القبيلة نراه يفتخر بنفسه، منتقدا لسلوك الأفراد في القبيلة، فيقول[6]:

ولست بمهياف يعشى سوامه ... مجدّعة سقباها وهي بهّل
– ولا جبّأ أكهى مربّ بعرسه ... يطالعها في شأنه كيف يفعل
– ولا خرق هيق كأن فؤاده ... يظل به المكاء يعلو ويسفل

---

[1]– عمر بن عبد العزيز السيف: بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية، ص209.
[2]– فوزي عيسى: النص الشعري وآليات القراءة، (د،ط)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2006، ص119.
[3]– عبد العزيز السيف: المرجع السابق، ص209.
[4]– عبد الفتاح أحمد يوسف: لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، ص248.
[5]– يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص264.
[6]–

- ولا خـــــــالف داريّـــــــة، متغـــــــزّل يـــــــروح ويغـــــــدو داهنـــــــا يتكحّـــــــل
- ولســـــــت بعـــــــل شـــــــره دون خـــــــيره ألـــــــفّ إذا مـــــــا رعتـــــــه اهتـــــــاج أعـــــــزل
- ولســـــــت بمحيـــــــار الظـــــــلام إذا انتحـــــــت هـــــــدى الهوجـــــــل العســـــــيف يهمـــــــاء هوجـــــــل

في هذه الأبيات ينفي الشنفرى عن نفسه جملة من الصفات الذميمة، اليت يراها في أبناء القبيلة التي نشأ فيها، ثم تمرد عليها؛ فهو ليس راعيا يبتعد بإبله على غير علم فيعطشها، ويجوع صغارها، وهو لا جبأ كدر الأخلاق بليدا، ولا يبقى مع زوجته في البيت يستشيرها في كل أموره، إنه لا يعرف الخوف ولا الدهشة في مواجهة المواقف، ولا يتخلف عن عمل الخير، ماكثا في داره، ولا يرضى لنفسه الذّل والهوان، ولا أن يبقى عالة على غيره، يطعمونه ويسقونه، إنه لا يتأخر عن الحرب، ولا يخاف من الظلام، كما يخاف الهوجل أي الرجل الطويل الأحمق المتسرع.

حول الشاعر الفخر القبلي، إلى فخر ذاتي فردي، فقد "اختفى الفخر القبلي، وحلّ محله إعلاء الذات وإظهار عفّتها، وترفّعها عن الدنايا والصغائر، واستبدال المجتمع الإنساني بعالم آخر هو عالم الذّئاب"[1].

وفي هذا يؤكد الدكتور عبد الحليم حفني أن الأغراض الشعرية التي كان لها حضورها فب الشعر القبلي، قد اختفت من قصيدة الصعلوك، ولم يعد لها قيمة بذاتها، بل قيمتها بمدى تصويرها بواقعه، يقول: "ولو رجعنا إلى كل الموضوعات والأغراض التي طرقها شعرهم، لوجدناها جميعا تصويرا لواقعهم الذي يعيشون فيه"[2].

وهذه حقيقة لا يمكن للدارسين إغفالها، فكل ما نجده في شعر الصعاليك من فخر ووصف، وعدو وغارات، وغير ذلك مرتبط بالذات لدى كل واحد منهم، وتسجيل لأحداث شخصية، ليس فيها أي ارتباط بالاتجاه القبلي، "فحين نلقي نظرة على شعرهم في هذه الأغراض جميعا، نعلم أن شعرهم أشبه ما يكون بالمذكرات الشخصية"[3].

مما سبق نستخلص أن الأغراض الشعرية التقليدية، غير موجودة في أشعار أصحاب الاتجاه الفردي المتمرد، من الصعاليك، فهي غير مقصودة لذاتها، وإنما مرتبطة بذاتية الشاعر الصعلوك، الذي يرى في تلك الأغراض قيودا تكبله، وتحصره ضمن نطاق القبيلة، وهذا يعين أن اختفاءها من شعره تعبير عن رفضه هذه التقاليد الفنية وتورثه عليها، واليت عبّر عنها بهذه البنية الشعرية المتفردة، كما يعني أنهم ير معنيين بالمجتمع، ومنشغلين بقضاياهم الذاتية، وأن مشاعرهم منفصلة عن مشاعر الجماعة.

---

[1]- عبد الفتاح أحمد يوسف: لسانيات الخطاب، ص249.

[2]- عبد الحليم حفني: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص378.

[3]- المرجع نفسه، ص 374.

أنواع الاغتراب عند الصعاليك:

تمهيد:

حظي مصطلح "الاغتراب" بعناية كبيرة من طرف النقاد والدارسين، قديما، وحديثا، وتجاذبته العديد من الحقول المعرفية، كعلم الاجتماع، وعلم النفس، ولم يكن هذا المصطلح بعيدا عن ميدان النقد والأدب والشعر، حيث درس كظاهرة نفسية مجسدة في الإبداع الأدبي شعرا ونثرا.

وفي هذا الصدد تناول الدكتور "فتحي إرشيد شديفات" هذا المصطلح في دراسته لشعر الصعاليك، وحدد معنيين للاغتراب؛ أحدهما إيجابي، والآخر سلبي، مركزا على المعنى السلبي، يقول: "يتمثل المعنى السلبي في عدم قدرة الذات على التكيف مع محيطها لأسباب ذاتية وأسباب موضوعية"[1].

ويؤكد الدكتور عبد القادر زيدان أن ظاهرة الاغتراب أو الغربة، لم تكن بعيدة عن حياة العرب في الجاهلية، يقول في هذا: "ولا شك أن البيئة الجاهلية لم تكن بعيدة كل البعد عن الجو العام الذي يحمل في داخله بذور الغربة (...) فالنظام القبلي بما يحمل من نظرة واحدة شاملة لجميع أفراده، لا يعني أن الإحساس بالغربة فيه معدوم"[2].

الذات في شعر الصعاليك:

يذهب معظم الدارسين لشعر الصعاليك أن شعرهم يتميز بالذاتية، حيث يصفه الدكتور عبد الحليم حفني بقوله: "أن شعر الصعاليك ذاتي، ولكنها ليست ذاتية اصطلاحية، كالتي يعرفها نقاد الأدب الغربي في الرومانتيكية التي تعتمد في مصدرها على الروحيات وفي كيانها على مشاعر الفرد، لكن ذاتية الصعاليك شيء آخر، فهي ذاتية حية متحركة، وذاتية واقعية معقولة في آن واحد، وفي كلا الحالين، فهي ذاتية متميزة محددة، لا تلتبس بغيرها ولا تخضع لمذهب بعينه من مذاهب النقد"[3].

وبهذا التوصيف الدقيق، يميز عبد الحليم حفني بين ذاتية الرومانسيين، وذاتية الشعراء الصعاليك؛ حيث تنتمي الأولى إلى عالم الروحانيات والأحاسيس، أما الثانية أي عند الصعاليك فتتميز بالحيوية والحركة والواقعية، والعقلانية معا، كما أنها ذاتية غير خاضعة لمذاهب النقد الأدبي، علا خلاف ذاتية الرومانسيين. مع أن بينهما تشابه في الطبيعة.

ويوضح عبد الحليم حفني ذاتية الشعراء الصعاليك من خلال مقاربته أشعارهم، وكل ما يصفه أو يتحدث عنه، مشدود إلى شخصه بخيوط واضحة، وعلاقته بكل ما يتحدث عنه بينة واضحة كل الوضوح"[4].

---

[1]- فتحي إرشيد شديفات: ظاهرة الاغتراب في شعر الصعاليك واللصوص حتى نهاية العصر العبا أول، ط2، دار الخليج، الأردن، عمان،، ص127.

[2]- عبد لقادر عبد الحميد زيدان: التمرد والغربة، ط1، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، صر، 2003، ص07.

[3]- عبد الحليم حفني: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1987، ص376.

[4]- المرجع نفسه، ص377.

فالمقصود من الوصف أو الحركة أو المغامرات، ليست هي، بل ذات الشاعر وشخصيته، إنه محور كل ما يتكلم عنه في شعره من فخر، واعتزاز، وغير ذلك.

رؤية الذات والتمرد:

تمهيد:

من خلال مصطلح الذات رآى الدكتور أحمد وهب رومية أن يعيد قراءة شعر الاتجاه الفردي المتمرد على القبيلة، يقول: "م يكن العدول إلى مصطلح "روية الذات" رغبة في التجديد أو انبهارا به، بل كان رغبة في الدقة، وحرصا عليه، وحريٌّ بهذا المصطلح أن يعيد النظر في القصيدة العربية القديمة (...) وأن يؤسس نظرة جديدة إلى هذه القصيدة تختلف عن ضرائرها السابقات"[1]

من هذا المنطلق يؤسس الدكتور وهب رومية لمنهج نقدي جديد، يحاول أن يفسر في ضوئه ملامح التطور والتجديد الذي مس القصيدة العربية القديمة، وبخاصة في العصر الجاهلي.

هذه القصيدة الجاهلية تخضع لحركية تطور الفكر في المجتمع، ويؤكد وهب رومية في هذا السياق: "أن الشعر لا يعبر عن ذات الشاعر فحسب، بل يعبر عن روح عصره أيضا"[2]؛ إنه انعكاس لما في واقع الجماعة التي يعيش فيها الشاعر، إذ يخضع للغة عصره، وعقلية مجتمعه، غير أن هذا لا يعني أن يبقى الشاعر أسيرا لهذه التقاليد اللغوية، والفنية، بل عليه أن يحاول الخروج عن هذه الأنساق كي يتم له التغيير الذي ينشده.

ولتلمس موطن التجديد في شعر الصعاليك، نحاول النظر في ذات هذه الفئة، من خلال نماذج شعرية، يبرز فيها التعبير عن ذواتهم.

ويكاد يجمع الدارسون والنقاد أن الشعر انعكاس لهذه الذات ولواقع تعيش فيه، ومن هنا فإن التمرد ظاهرة شعرية لها قيمتها الفنية والتاريخية، والواقعية، ولهذا يؤكد الدكتور إحسان سركيس أن: "الخروج على القبيلة ومفاهيمها يأخذ معنى فردي يلتزم به فرد أوفر إحساسا بضيق الحياة، فينعكس ذلك في سلوكه وشعره على شكل من الاستبطان والمشاقة اللذين يعبران عن حدّة التشوف مع استشعار العجز عن تبديل الواقع أو تحويره أو تطويره"[3].

إن ذات الشاعر تتأثر بما في المجتمع من مظاهر أكثر من غيرها، ولهذا فإن هذه الذات تمر بمرحلة حساسة، تصل من خلالها إلى قناعة، ووعي بالواقع الاجتماعي والاقتصادي، وبضرورة الثرة والتمرد عليه، قد فسر الدكتور إحسان سركيس هذا بإثبات الذات أو بمحاولة إثبات الشخصية، بقوله: "قد تكون الصعلكة للمغامرة وإثبات الشخصية عن طريق العبث بالعرف والعادات أو إظهارا لعدم المبالاة لأوامر العائلة والمجتمع"[4].

ويمكن أن نحدّد حضور "الذات المتمردة" في شعر الصعاليك، عبر مجموعة من مسارات الوعي الاجتماعي والثقافي من خلال نماذج شعرية على النحو الآتي:

---

[1]- وهب أحمد رومية: شعرنا القديم والنقد الجديد، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1990، ص180.

[2]- المرجع نفسه، ص181.

[3]- إحسان سركيس: مدخل إلى الأدب الجاهلي، ط1، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1979، ص181.

[4]- المرجع نفسه، ص 193.

1- ذات تبحث عن مكانتها في المجتمع القبلي؛ حيث نجد عروة بن الورد لا يبالي بأي شيء في سبيل تحقيق ذات، يقول[1]:

أقلـــي علـــيَّ اللّـــوم يـــا ابنـــة منـــذر ونـــامي فـــإن لم تشـــتهي النـــوم فاســـهري
إنّي زعـــيم لـــئن لم تتركـــوا عـــذلي أن يســـأل الحـــيّ عـــنّي أهـــل آفـــاق
لتقـــرعنّ علـــيّ الِّـــنَّ مـــن نـــدم إذا تـــذكّرت يومـــا بعـــض أخلاقـــي

يبدوا ان هذه الذات لم تعد تربطها بالقبيلة أية رابطة، فقد انقطعت كل أسباب المودة، بسبب إكثار أهلها من لوم الشاعر وعتابه على مغامراته، وكثرة اللوم للمرء تفسده، وتجعله يتمرد. ويصف الدكتور وهب أحمد رومية شخصية الشاعر بأنها ذات: "نفضت يديها من المجتمع، وأدارت له ظهرها، واغتربت عنه، فهي ترى أنسها الأنيس في مجتمع "الوحشة والوحوش" لا في مجتمع البشر ... إنه اغتراب جريح ساقته إليه الظروف"[2].

إن هذه النصوص لشعرية معبرة أصدق تعبير ن ذات الشاعر الصعلوك، وعن رؤيته لمنظومة القيم الاجتماعية، وإبداء لموقفه الخاص منها. وهي أيضا محاولة لنقضها وهدمها على رؤوس أصحابها.

يذهب حنا الفاخوري إلى أن هناك اتفاقا وتشابها بين "الشنفرى" وصاحبه "تأبط شرًا" في الفطرة والشخصية التي يصدر عنها كل منهما، حيث يقول: "لا يختلف أدب الشنفرى عن أدب تأبط شرا مادة ونفسا ولونا محليا وخشونة ألفاظ في رقة عاطفية، كما لا يختلف عنه تدفقا فطريا والتصاقا بالمادة"[3]؛ فكلا الشاعرين من أصحاب الذات المتضخمة، التي ترفض كل أشكال الظلم لإهانة، كيف لا؟ والفطرة العربية، والنخوة والشهامة تسري في عروقهما.

2- ذريـــني ونفســـي أمَّ حســـان إنّـــني بهـــا قبـــل ألاّ أملـــك البيـــع مشـــتري
3- أحاديـــث تبقـــى والفـــتى غـــير خالـــد إذا هـــو أمســـى هامـــةً تحـــت صُـــيّري
4- ذريـــني أطـــوف في الـــبلاد لعلّـــني أخلّيـــك أو أغنيـــك عـــن ســـوء محضـــري
5- فـــإن فـــاز ســـهم للمنيـــة لم أكـــن جزوعـــا، وهـــل عـــن ذاك متـــأخّر؟

ويعلق الدكتور وهب أحمد رومية على هذه الأبيات، مستجليا ذات عروة، بقوله: "لقد كان "عروة" مؤرقا، تؤرقه فكرة الخلود: (أحاديث تبقى والفتى غير خالد)، وكان يدرك أن سبيل الخلود هي سبيل "العمل الإنساني" الذي فهمه فهما خاصا"[4]؛ فذات عروة بن الورد لا تتحقق إلا بالسمعة الطيبة التي يصنعها لنفسه بإنسانيته أو نزعته الإنسانية التي عرف بها بين أقرانه من الشعراء الصعاليك.

---

[1]- عروة: ديوان عروة بن الورد أمير الصعاليك، شرح وتحقيق أسماء أبو بكر محمد، (د،ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص67.
[2]- وهب أحمد رومية: شعرنا القديم والنقد الجديد، ص258.
[3]- حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم، ط1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1986، ص172.
[4]- أحمد وهب رومية: شعرنا القديم وانقد الجديد، ص257.

-2- ذات قلقة مغتربة: إن الاغتراب عن المجتمع من أهم السمات النفسية التي يتميز بها شعر تأبط شرا، حيث لم يستطع أن ينسجم مع قبيلته، فذاته "مغتربة غير قادرة على التكيف مع المجتمع، فهي تخاصمه وتنفر منه"[1]. ويعبر تأبط شرا عن اغترابه، في مثل قوله[2]:

ولا أقـــــول إذا مـــــا خلّـــــة صـــــرمت ... يـــا ويـــح نفســـي مـــن شـــوق وإشـــفاق
لكنمـــــا عـــــولي إن كنـــــت ذا عـــــول ... علـــي بصـــير بكســـب الحمـــد ســـبّاق
بـــــل مـــــن لعذالةخذّالـــــة أشـــــب ... حـــــرّق بـــــاللوم جلـــــدي أي تحـــــراق
عـــــاذلتي إنّ بعـــــض اللـــــوم معنفـــــة ... وهـــــل متـــــاع وإن أبقيتـــــه بـــــاق

-3- الذات الجريحة:

إن الذّات في شعر الشنفرى مثل بقية الذوات التي رأيناها عند بقية الشعراء الصعاليك، كونها من اتجاه شعري واحد، هو الاتجاه الفردي المتمرد، ولعل الأسباب الذي دفعت بهم إلى التمرد –أيضا– واحدة. غير أن تفاعل الذات ع القبيلة أو المجتمع مختلفة في بعض الجوانب؛ فالذات عند الشنفرى مكلومة جريحة، يقول وهب أحمد رومية: "في لامية العرب الذائعة الصيت، والمنسوبة إلى هذا الشاعر، مرارة لاذعة، وحسرة مستمرة، ودعاوى عريضة، واغتراب جريح، وفي شعر الصعاليك عامة مقادير متفاوتة من هذا كله لا تخفى"[3].

لقد ضاق الشنفرى ذرعا بقومه لإحساسه بأنه ليس منهم، فقضيته أكبر من قضية الآخرين، إنها أكبر من ذلك، إنها مشكلة انتماء، ليست مشكلة ظلم فقط، يقول أحمد وهبة رومية: "ليست القضية قضية تحول شاعرنا من قوم إلى قوم آخرين، ولكنها قضية أخرى أبعد غورا وأشد مأساوية، إنها قضية الانتماء"[4].

وفي هذا يروى عن الشنفرى أنه كان يظن أنه ابن للرجل الذي رباه في بني سلامان، فلمّا كبر أخبروه أنه ليس منهم وأنه عبد، وأهانوه، فكرههم، ولم يستطع أن يتقبل الأمر، فقرر أن يتحول عنهم، باحثا عن انتماء جديد، فنحن أمام ذات أرهقها المجتمع الإنساني بظلمه وأذاه بغضه، فإذا هي تخلع "انتماءها" إلى هذا المجتمع، وتؤسس "انتماء جديدا" لها، إلى "المجتمع الحيواني"، إنها تغترب عن عالم الإنسان وتلون بعالم الوحوش الكاسرة، فتكشف بذلك عن اغتراب قاس جريح"[5]. يقول الشنفرى[6]:

-ولي دونكـــــم أهلـــــون ســـــيد عملّـــــس ... وأرقـــــط زهلـــــول وعرفـــــاء جيـــــال
- هـــــم الأهـــــل، لا مســـــتودع السّـــــر ذائـــــع ... لـــــديهم ولا الجـــــاني بمـــــا جـــــرّ يخـــــذل
- وكـــــلّ أبيّ باســـــل غـــــير أنّـــــني ... إذا عرضـــــت أولى الطرائـــــد أبســـــل

---

[1]- المرجع نفسه، ص257.

[2]- المفضل الضبي: المفضليات، تح، أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، ط6، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1942، ص

[3]- وهب أحمد رومية: شعرنا القديم والنقد الجديد، ص26.

[4]- المرجع نفسه، ص 265.

[5]- المرجع نفسه، ص 265.

[6]

يوضح ف يهذه الأبيات الأسباب التي دفعته إلى الخروج عن قومه إلى الصحراء، ليعيش مع الحيوانات، ويحددها لكل صراحة:

- صيانة الحيوانات للسر.
- تضافرها وتعاونها فيما بينها.
- نصرتها للجاني من أبنائها.
- بسالتها وإباؤها وعزّتها.

وفي هذا السياق نستنتج أن "نزعة التمرد" في شعر الصعاليك كانت من أهم حركات التجديد الفني، في القصيدة العربية الجاهلية، حيث أصبح لهذه الفئة من الشعراء منهجها الشعري في التعبير عن الذات المقهورة، وفي بلورة الوعي الاجتماعي، وإذكاء جذوة التغيير، من أجل تحرير الذات التي ظلت تبحث عن الحرية والاعتاق.

– الأنا والآخر (الهم):

بعد أن اتضحت معالم الذات (الأنا) عند الشاعر الصعلوك، وتبين موقفها من الآخر الممثل في (الهم) الذي يعني القبيلة، يأتي الشاعر على ذكر صفات الجماعة (القبيلة)، "من خلال نفي علاقته بالجماعة بأساليب لغوية، تقابل بين الذات والجماعة القبلية"[1].

فالقارئ للامية العرب يجد مجموعة من الثنائيات الضدية، القائمة بين الشاعر، وقبيلته، على النحو الآتي:

أ– ثنائية التوحش والاستئناس: النعومة والتكحل، والزينة مع الخشونة والقوة.

ب– ثنائية الفرغ والامتلاء: امتلاء البطن وفراغ العقل.

ج– ثنائية الحركة والثبات: الارتحال مع الإقامة مع المرأة في البيت.

بهذه المقابلات تتضح صورة الأنا عند الشنفرىأنها ذات ترفض هذه القيم التي تواضعت عليها القبيلة، وأنها تأبى الإقامة على الخيم.

كما برزت الأنا عند الشنفرى من خلال الحضور المكثف لضمائر المتكلم والغائب، يقول الدكتور فؤاد عيسى موضحا هذا التقابل بين أنا الشاعر وهم (القبيلة): "إن شفرة النص تتحدد منذ بدايته ممثلة في هذا الحضور الكثيف للضمائر التي يسميها ياكبسون "عصب العمل الشعري"؛ فتمة ستة ضمائر في البيت الأول تتشابك وتتشجر فيما بينها حيث يقف الشاعر وحده ممثلا في ضمير المتكلم: (إني ... أميل)، في مواجهة مجموعة الضمائر الأخرى الدالة على القبيلة في صورها المختلفة: (أقيموا، بني أمي، مطيكم، سواكم)"[2].

ولا شك في أن هذا الصراع بين الضمائر، هو صراع بين "أنا" الشنفرى، و (هم) القبيلة.

---

[1]– عبد العزيز السيف: بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية، ص216.

[2]– فؤاد عيسى: النص الشعري وآليات القراءة، ص129.

وفي الأخير نستخلص أن "نزعة التمرد" شكلت ظاهرة أدبية وفنية، في الشعر الجاهلي؛ حيث برز أصحاب هذا الاتجاه الفردي، في مقابلة أصحاب الشعر القبلي، وقد عمد شعراء الصعاليك إلى الخروج عن النمط الشعري والفني الذي فرضته أعراف وتقاليد المجتمع القبلي.

وقد تميز شعر الاتجاه الفردي المتمرد بمجموعة من المظاهر والسمات تمثلت في ثلاثة نقاط أساسية، هي:

أولا: الاستغناء عن المقدمات التقليدية.

ثانيا: تغيير نمط الرحلة وبنائها.

– ثالثا: اختفاء الأغراض الشعرية القديمة.

وتعد هذه المظاهر الفنية مظاهر للتمرد الفني والشعري عند الشعراء الصعاليك، من الناحية الشكلية.

أما من حيث المضامين فقد أسفر شعر الصعاليك عن بروز ذات الشاعر في تجليات مخالفة تماما، لنمط الشخصية لشاعر) الذي كرس شعره لمدح قبيلته، وذابت شخصيته في المجتمع القبلي، فقد فض لصعاليك هذه السلطة التي تفرضها القبيلة على الفرد بظلم، ولذلك عاشوا حالات من الاغتراب في قبائلها، وظلوا يبحثون عن تحقيق الذات، وحينما لم يفلحوا قرّروا الخروج والارتحال إلى مجتمع يحترم ذاتهم ويقدرهم.

وقد كان شعر الصعاليك ممثلا لتيار شعري يمكن أن يوصف بالتجديد في ذلك الزمن، الذي لم يكن التجديد فيه أمرا سهلا، فهذه مبادرة شخصية أثرت في مسيرة الشعر الجاهلي، وغيرت مجرى التقاليد الفنية السائدة.